القطاع من السور، عند باب اسطفان، الذي سبق لفردريك أن شرع في عمارته، وكذلك القلعة التي تضم حصن داود»[94] فضرب ذلك السور، وتلك القلعة، بالمجانيق، وصمدت حاميتها الصليبية الصغيرة في وجه الهجوم والحصار، إلى أن استسلمت (بتاريخ 7 كانون الأول/ ديسمبر 1239م = جمادى الأولى 637هـ) على أن يؤمّن لها الرحيل إلى الساحل (حيث لا تزال تقوم مملكة الصليبيين)، وأما الملك الناصر داود، فقد دمّر كل ما بناه الصليبيون، في المدينة، من سور واستحكامات وبروج وقلاع، بما فيها حصن داود، وعاد إلى الكرك، عاصمته[95].

ولكن، ما أن غادر الملك الناصر داود القدس إلى الكرك حتى عاد الصليبيون إليها، وبقوا فيها حتى تموز/ يوليو عام 1244م (المحرم 242هـ)، خصوصاً وأن هذه الفترة شهدت حروباً أهلية داخلية بين الملوك الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، مما أتاح للصليبيين حرية التصرف، في هذه البلاد، إلى حد كبير، بل التحالف مع بعض هؤلاء الملوك ضد بعضهم الآخر[96].

وفي منتصف عام 1244م (مطلع عام 642هـ) توجه الملك الصالح نجم الدين أيوب، صاحب مصر، نحو بلاد الشام، ومعه جيش من مصر ونحو عشرة آلاف فارس من الخوارزميين (الذين استدعاهم من وراء الفرات لمناصرته، فعبروا الفرات عام 642هـ = 1244م وانضموا إليه). وما أن علم الصليبيون بتقدم الملك الصالح من مصر نحوهم بهذا الجيش اللجب حتى أسرعوا يحصّنون المدينة المقدسة ويعززون حاميتها ويقوّون استحكاماتها، ولكن الخوارزميين ما لبثوا أن اقتحموا المدينة (في 11 تموز/ يوليو 1244م = أول صفر 642هـ)، حيث جرت، في شوارعها، معارك حامية بين المهاجمين والمدافعين، استطاع المهاجمون خلالها،

(94) رنسيمان، م. ن. ص 375، ويرى عاشور أن حملة الناصر داود على القدس تمت أثناء وجود الحملة الصليبية الفرنسية في عكا وقبل توجهها إلى غزة حيث هزمت (عاشور، المرجع السابق، ج 2: 1034) إلا أننا لا نرى رأيه.

(95) رنسيمان، م. ن. ص 376 ـ 377، ويبدو أن بعض المؤرخين قد جعلوا احتلال الملك الناصر داود للقدس قبل معركة غزة لا بعدها (ومنهم العارف، ص 189)، إلا أن الصحيح هو ما كتبه رنسيمان (استناداً إلى المقريزي)، وهو ما اعتمدناه بدورنا.

(96) لا مجال للإسهاب في هذا المجال، انظر رنسيمان، م. ن. ص 377 ـ 391.